د . حامد عمار

تعليق على بحث « القيم والعادات .. وازمة التطـور » للدكتور بهاء ابـو لبـن

يقع بحث الدكتور بهاءابو لبن المقدم الى هذه الندوة في اطار محاولات المشتغلين بالفكر الاجتماعي للاسهام في مسيرة التقدم في الحياة العربية المعاصرة . ومسيرة التقدم العربية كما حددها ترتكز على مفهوم التحضير ومستلزماته . وقد ظهرت كتابات متعددة في السنوات الاخيرة حول تشخيص هذه المشكلة في محاولة للتحديث او العصرنة او مواجهة تحديات العصر الحديث ، ومسايرة الثورة العلمية والتكنولوجية ، ومعظمها يعالج فكريات وتقاليد الانسان العربي ومدى ملاءمتها للحياة المعاصرة الحديثة ومطالبها . واطار الذي يمكن ان تتفق عليه مجمل هذه البحوث هو اننا بصدد وضع جديد في المنطقة العربية نجم عن اختلال في التوازن الاجتماعي، او على الاقل ان المجتمع العربي يحاول ان ينتقل مرحليا من مرحلة من التوازن الذي تضعف فيه مقومات التماسك والتواصل التقليدية مما يجعلها محدودة الفاعلية والوظيفية الى مرحلة منجددة منالتوازن ذات مقومات اكثر فاعلية وكفاءة في تحقيق التماسك والحيوية . وقد ادت عوامل عديدة داخلية وخارجية كثيرة الى اهتزاز صورة التوازن التقليدية والى فاعلية مقوماتها وفكرياتها وتقاليدها .. من هنا كان لا بد من مواجهة هذا التحدي على جبهات مختلفة وباسلوب منسق .

ومن قائل ان مشكلة تجديد الحياة العربية المعاصرة ينبغي ان يتجه الى الانسان وفكرياته، وان التغيير القيمي والثقافي هو المنطلق الاساسي ولجأ هذا الفريق الى تصور هوة ثقافية بين التقدم المادي والتكنولوجي في العالم العربي وبين الواقع الثقافي في القيم والعادات والاتجاهات التقليدية والافتراض في هذا التخلف الثقافي مرتكز على ان التقدم المادي والتكنولوجي قد شق طريقه بخطوات اسرع بكثير من مقتضيات الفكر والعادات المرتبطة بالتعامل مع معطيات العالم المادي ، وكثيرا ما يضرب المثل في هذا الصدد بتعامل الفلاح مع الجرار الزراعي (التراكتور) او تعامل العامل مع الالات او اهمال الفنيين في صيانة المصنع ، او تدخل العلاقات الشخصية في عملية الادارة ، والجهد المطلوب في هذه الحالة هو تصوير الفكر وتحديث العقل ، واحداث نقلة من الانسان التقليدي الى نمط جديد من الانسان يتسم بخصائص وسمات فكرية وسلوكية تستلزمها « عصرية الفرد » . ومن هنا ظهرت قوائم متنوعة للشخص « العصري » .وقد اورد الدكتور بهاء قائمة الكس انكيليس ، واشار الى قائمة جونار ميردال وكومار . وهناك دراسات اخرى في هذا المجال وان اختلفت اطارانها من الاساتذة العرب المشتغلين بالدراسات الاجتماعية تتجه معظمها الى ابراز العوامل السلبية في نمط الشخصية العربية وانجاهاتها وقيمها . ومن امثلة ذلك ما كتبه الدكتور علي الوردي عن شخصية الفرد العراقي ، وما كتبه الدكتور حسن صعب في تحديث العقل العربي ، وما كتبه الدكتور هشام شرابي في دراساته الاخيرة التي لم تظهر في العربية بعد ، وما كتبه صاحب هذا التعليق منذ سنوات عن التشخصية الفهلوية في مصر . ويحاول هؤلاء الكتاب ان يصوروا الصورة الايجابية المطلوبة للشخصية في نقلتها عن الانسان التقليدي الى الانسان الحضري الحديث في تشخيصات للنمط الجديد سماه بعضهم بالشخصية ذات سمات معينة او في صورة الشخصية المنتجة او في صورة الشخص العقلاني او في صورة النمط الابداعي المستقبلي او غير ذلك من التشخيصات والتوصيفات لسمات في نمط جديد للشخصية يحقق تكوينه اتساقا بين التقدم المادي والتقدم الثقافي في المجتمع .

ولا شك في ان مثل هذه المحاوت الفكرية لها قيمتها ووظيفتها في النقد الذاتي ، وفي محاوله استكشاف جانب من جوانب التخلف في صوره ومظاهره ، وفي مزيد من الوعي بالواقع . لكنها فينفس الوقت خالية من المضمون ومن الالتحام بالواقع التحاما يحدد موقع العلل الرئيسية ويمكن من توفير الوسائل اللازمة للمواقف الجديدة في التعامل مع الناس والاشياء والافكار ،وغلبة تلك الاستجابات العصرية في مواقف الحياة الجديدة ؟ ولو اخذنا اي قائمة من القوائم ،فاننا قد نجد سماتها في الشخصية التقليدية بالنسبة لمواقف محددة في الحياة : الم ينفتح الفلاح العربي للتجديد والتغيير في زراعته فزرع الخضراوات والفواكه والازهار بعد ان كان مقتصرا على زراعة الحبوب. من قال انه يميل الى الانجاز وهو يسعى نهاره للحرث والسري والحصاد حتى يجني محصوله . ومن قال انه لم يسع الى السيطرة على بيئته وهو يحفر البئر او يشق القناة ، او يقيم السدود درءا لمخاطر الفيضان في ضوء امكاناته وادواته . ومن قال انه لا يدخر وهو يجمع روث البهائم لاستغلاله كمصدر للوقود ، وارتبطت قيمه بجعل الاقتصاد في استخدام الماء امرا مستحبا حتى في الوضوء للصلاة . واذاكان قد لجأ الى الطلاسم والسحر في معالجة المرضى ، فان ذلك يمثل اخر المطاف في مواجهة موقف لم تفلح فيه الوسائل المعروفة في طبه التقليدي . المشكلة الحقيقية القيم والاتجاهات التي كانت وظيفية في مواجهتها للمواقف والمواقع والمضمون السائد تقليديا اصبحت قاصرة وغير كافية في التحامها ومواجهتها للمضمون والواقع المتطور المعاصر : انها غير ذات كفاءة

وفاعلية من حيث مدى هذه القيم والتقاليد في بعدها الزمني او بعدها المكاني ، او في شمولها الاجتماعي أو في مقوماتها الماديه.

لكن هل الممكن ان يقال ان المشكلة الاساسيه في تقدم المنطقة العربية هي مشكلة ثقافية في جملتها . وهل حقيقة قد تطورت الحضارة المادية تطورا سبق التطور الثقافي . وهل يمكن عكس القضية بالقول ان التطور الفكري والقيمي قد تجاوز التقدم الماضي،او على الاقل قد سبقه في بعض المجالات ، ولدى بعض الفئات الاجتماعية ؟ تلك صورة واردة لطرح المشكلة ؟ ثم اذا كان « تلقين السكان وتدريبهم على خصائص مرغوب فيها . تعارضه متطلبات الواقع وموازناته ، فكيف يمكن تصور التعزيز لهذه الخصائص ، بل ان الارتداد عنها امر محتمل ؟ ثم بعد القضية قضية القيم والعادات والاتجاهات باعتبارها شرطا لازما سابقا لتطوير الواقع الحياتي، او ان المقومات المادية هي الشرط اللازم السابق لتطوير الواقع الفكري والقيمي ،وانما هو حزمة او ربطة من الوقائع والمعطيات فكرية ومادية تتفاعل مع بعضها في علاقات معينة لتحقق حالة ذات مظاهر متعددة الجوانب .

ومن هنا فان المسألة ليست مناظرة بين نقلة الانسان التقليدي الى صورة معاصرة وبين نقلة البناء الاجتماعي . ان تقدير الاهمية القصوى للتغيرات البنائية (البنيوية) واعتبارها شرطا لازما في التطوير المجتمعي امر لا يمكن تجاهله ولا التقليل من اثاره ، لكنه في نفس الوقت ليس كافيا وحده . لا يعيش فرد او فئة في مجتمع الا من خلال بنى ومؤسسات اجتماعية يعيشون من خلالها ويتأثرون بها، ويؤثرون فيها . ولعله من قبيل المناقشات البيزنطية ان نقول من الذي ظهر اولا ، ومن هو صاحب التأثير الاغلب في مرحلة معينة وانما نستطيع ان نقول ان اي صورة من صور الحياة الاجتماعية هي محصلة لتفاعل الانسان مع مؤسساته وتأثير المؤسسات فيه . كما نستطيع ان نقول دائما ان الانسان بوعيه وارادته يستطيع التأثير في المؤسسات وتغييرها اذا ما اصطنع لذلك الوسائل والجهود اللازمة لهذا التغيير . ان البنى والمؤسسات الاجتماعية ليست قدرا محتوما كما ان الانسان ليس واقعة أو حقيقة جامدة وانما هو عمل ونشاط وخلق ومسئولية وحرية .

المشكلة في التغيير والتطوير والتنمية اذا هي تصورات كلية لتحريك الاوضاع القائمة بعناصرها الانسانية القيمية وعناصرها البنائية المؤسسية . ولا يمكن ان يتم هذا التحريك الا عن طرق ثلاث : مدخلات جديدة ، اعادة لتنظيم العلاقات والتفاعلات بين المعطيات القائمة ، او تحسين لفاعلية المعطيات القائمة وفي معظم الحالات يتطلب الموقف المجتمعي العام استخدام هذه الطرق الثلاث في ضوء الاستغلال الامثل للموارد المتاحة حاليا وعلى المدى الابعد . وفي جميع هذه الطرق تتمثل وحدة الواقع الاجتماعي في مكونات انسانية قيمية ،ومكونات مادية ومؤسسية تنظيمية ليست قضية التطوير اذن هل نبدأ بالقيم او نبدأ بالبنى المؤسسية .

وانما السؤال العملي المطروح هو اذا اردنا ان نصل الى هدف معين او الى مجموعة او « طقم » من الاهداف فما هي مستلزماته الفكرية والسلوكية والانسانية ، وما هي مستلزماته البنائية والمؤسسية . وحتى اذا بدأنا بطرف واحد وهو القيم والاتجاهات فنسأل اذا اردنا ان نطورها الى صور معينة فكم يقتضي هذا التطوير من الاسس الموضوعية وما هي الصورة البنائية والمؤسسية الضرورية التي ينبغي ان تلازم وتغذي وتتغذى من هذا الموقف الكلي.

وبهذا يصبح الهدف او مجموعة الاهداف المبتغاة هي الاساس الذي يتحكم في نوع « الخلطة » المطلوبة من الشروط والوسائل المختلفة فكرية ومؤسسية وذلك في سياق زمني ونسب كمية وتوصيفات كيفية بحيث يتحقق من تفاعل هذه المكونات الهدف الاجتماعي والانساني . وأود ان أؤكد هنا ان عناصر الخلطة وتركيبها وتنظيمها وحجمها ووزنها امور مهمة في احداث الاثر المطلوب ، والا حدثت الاختناقات والاهدار . وعلى سبيل المثال فانه اذا وصف الطبيب لمريض ان يتناول قرصان من الاقراص المضادة للحيويات (انتيبايوتيك) بعد الاكل لمدة اربعة ايام وان يتناول معها اقراص من فيتامين ب ، وان يستريح في المنزل لمدة خمسة ايام ، فاذا اتبع المريض هذه المقومات المختلفة في تسلسلها وكمياتها وشروطها كان احتمال الشفاء كبيرا جدا وكلما فقد شرطا او مقوما قل احتمال. كان يتناول قرصا بدلا من قرصين ، او يتناول قرصين لمدة يومين فقط ، او يتناول الاقراص دون الراحة .. وهكذا . ان عملية التطوير في مقوماتها العلمية ذات وسائل ومقومات يمكن تحديدها ، ولا يمكن اجتزاز جزء منها او الاقتصار على جانب منها دون الاخر دون اهدار للنتائج ، بل ربما الوصول الى ردة او رد فعل ، كما هو الحال في مثل المريض ، الذي قد تشتد به الحمى اكثر من المرة الاولى نتيجة لعدم اتباع الشروط والمقومات التي وصفها الطبيب ويسلمنا هذا كله الى موضوع الالتزام بشروط التقدم ومستلزماته وما يتطلبه من جهد وتنظيم ومتابعة واستكمال لمقتضياته . لا يمكن ان تمجد واقعك بقيمه وعاداته ومعطياته ، وترغب في نفس الوقت في تطويره وتحقيق بدائل افضل . لا يمكن ان تحرر المرأة وتعرضها لان تنجب عشرة اطفال، ولا يمكن ان تعلمها وتحرمها من العمل ، وليس من المعقول ان تحمل ساعة ولا تلتزم بالوقت ، وليس من المعقول ان تعلم وتكون العلماء ، وان تفرض عليهم سلطة غير سلطة العلم ونتائجه ، وليس من المعقول ان تتصور امكانية للمشاركة الجماهيرية واعداد هائلة تفتقر الى سلاح المشاركة ومهاراتها من قراءة وكتابة . ولعل هذا ما اراد الدكتور بهاء ان يؤكد في مجال الالتزام بمقومات التحضر ، وان انعدام مثل هذا الالتزام يؤدي الى ان النمط السائد للسلوك في كثير من انحاء العالم الغربي بعكس فراغا واسعا بين ما هو كائن ، وبين ما يمكن ان يكون وبين النتاج الفعلي والنتاج الكامن للشعب ، وبين الصور البدوية والصور الحضرية .

صدر حديثا

قطعيات بلباس الميدان

للشاعر

الياس لحود

منشورات دار الآداب